مؤتمر تعظيم حرمات الإسلام

وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

وجْهُ الإخفاقات

في المواقف القريبة للأمة في تعظيمها للحرمات

د. الشريف حاتم بن عارف العوني

عضو مجلس الشورى، والأستاذ المشارك في جامعة أم القرى

الأعمال الخيرية

المقدمة

الحمد لله الذي وسع كل شيء برحمته، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وعلى أزواجه وذريته.

أما بعد: فإن من سنة الله تعالى في الأرض أن يتدافع الحق والباطل، وهذا من أسباب بقاء الحق واستمرار وجوده ظاهراً قويّاً: {وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ} [البقرة: ٢٥١]: {وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠].

كما أن هذا الصراع مآلُهُ مَحْسومٌ، لا يَشُكُّ فيه أحدٌ، وهو أنّ الغَلَبَةَ للحقّ سبحانه؛ وما دام الله تعالى هو الحق فلن يُكْتَبَ لغير الحقِّ بقاءٌ وخلود: {بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨] و{وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١].

ولذلك كان غياب الحقّ في بلد أو بين أُمة هو سبب قيام دولة الباطل فيهم، ومجرّدُ مجيء الحقّ هو زُهُوقُ الباطل، ولا يتطلب دَحْرُ الباطل إلا هذا المجيء!

وهذه السنة الرّبانّية التي تبدأ بالصراع بين الحق والباطل، والتي تنتهي بأن مجرد حضور الحق الكامل بحججه وبراهينه هو زُهُوقُ الباطل واندحاره واختفاؤه سنةٌ جعلها الله تعالى دليلاً على الحق وعلامةً له،

لمن خَفِيَ عليه برهانُ الحقّ ودليله، وأراد أنّ يعرف الحق من الباطل بمآلات الأمور.

وهذا هو ما نشاهده اليوم بأم أعيننا، أنّ انتشار الإسلام هو بقدر عَرْضه والدعوة إليه. وأنه ما حَضَرتْ صورةُ الإسلام بصفائها إلا استطاعت أن تملك القلوب وتملأ العيون، فلا يستطيع من شاهدها إلا بأن يقف أمامها مبهوراً مشدوهاً بذلك الجمال والكمال والعظمة؛ فإما أن تَتّقد الفطرةُ فيه فيدخل في دين الله تعالى، أو أن تغلبه الأهواء فينكص على عقبيه، ليزداد قلبه ظلاما بهذا العناد، وتنقبض نفسه ضيقاً على ضيق، وتضل نداءات فطرته في مهالك ظُلْمِهِ لنفسه، لتكون ألماً على ألم وحسرةً على حسرة: {وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠].

ولذلك كان هذا الانتصار لدين الإسلام، هو انتصارُ انتشارِهِ بمجرّد حضوره والدعوة إليه - دليلاً من أدلة نبوة نبينا ﷺ؛ لأنّ علامة الحقّ الظاهرةَ قد تحقّقت في دين الإسلام الذي بُعث به نبينا ﷺ!! فكان هذا دليلاً على أن إلهنا حق ونبينا حق وديننا حق: {وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ} [الحج: ٧].

لكن ظهور تلك العلامات وبروزَ ذلك الدليل على النبوّة يستوجب القيام بواجب الحقّ الذي تحمّلناه، وهو الدعوة إليه، والدفاع عنه أمام من يحاول صدّ الناس عنه بتشويهه، أو يحاول تدنيسه لكي يستدل على بطلانه بذلّ أتباعه وانخذال حملته.

ويتضح من ذلك أن التطاول على المقدّسات له غرضان كبيران، هما من أهم المقاصد عند المتطاولين:

الأول: تحريف حقائق الحق، لتكون باطلاً في نظر الجاهلين به، فلا يجد الجاهلون فيه مُرادهم ومقصودهم الذي يسعون إليه، وهو الحق الذي تتعّطش النفوس إليه، فينفرون منه. وتَطَاوُلُ أصحاب هذا الغرض سمتُهم فيه الشُبْهَةُ، ومحاولة الاستدلال (ولو بالمغالطات) على تطاولهم هذا.

الثاني: الانتقاصُ والإهانة لحقائق الحق، الذي يتلبَّسُ التَّشَفي فيه بصورة الاحتقار والترفّع والتعالي على ذلك المقدَّس عند غيرهم، ليكون هذا دليلا عند أنفسهم وعند من يجهل الحق أنه ليس حقاً، لأن الحق مرتكز في النفوس أنه عزيز وعالٍ، وأن أصحابه وحملته أعِزّةٌ به، فإذا ما احتقره أحدٌ واستخف به، تصور الجاهلون بالحق أنه لا يمكن أن يكون حقاً، وإلا لما تطاول عليه ذلك المُتَطاوِل الذي قد يكون مُعظَّماً عند قومه وبني جنسه. وتطاول أصحاب هذا الغرض سمتُهم الإسفاف في التطاول، والإقذاع في أسلوب التناول: بالسبّ والشتم والأعمال الدالة على شدة الاحتقار وتمام الاستخفاف.

وقد ظهر هذان الغرضان في الأزمات المسيئة السابقة، فيأتي تطاول بابا الفاتيكان لتحقيق الغرض الأول، وتأتي الرسوم الدانمركية محققةً للغرض الثاني.

فهبّت الأمةُ غضباً لدينها ولنّبيها ﷺ، فاندلعت المظاهرات والاحتجاجات، وعمّت كل بقاع المسلمين، سواءً في الدول الإسلامية أو الدول التي فيها تجمّعات إسلامية.

لقد كان حدثاً هائلاً اندهش له الإسلاميّون والمصلحون، قبل أن يندهش له الآخرون. بل لقد صرَّح العديد من القادة الغربيين أنهم ما كانوا يظنّون أن شيئاً من هذا سيحصل!ولا نستغرب أن يقول الغربيون ذلك؛ لأننا نحن قبلهم ما كنّا نظن أن كل هذا سيحصل!!!

نعم.. لقد استطعنا أن نجعل العالم الغربي المتغطرس، الذي كان لا يرضى أن يستمع إلينا، فضلاً عن أن يفهمنا: أن نجعله منصتاً لنا!فقد أجبرناه على ذلك، وأن يلتفت إلينا، ليقول في اندهاش: «مازال للمقدَّس الديني شأن عظيم عند طائفة من البشر على وجه الأرض!! مازال المسلمون يعظمون دينهم؟!!».

ولذلك قد كان ذلك الحَدَثُ الهائل، بكل ما فيه من أحزان، ومن شعور بالنشوة للعزّة الدّينية التي فاضت بها الأمة - حدثاً لا يجوز أن يمر بغير وقفات تأمل معه: نستلهم منه الدروس، ونستفيد من تفاصيل أحداثه ومراحلها ما نسدّدُ به خطانا المستقبليّة فيما إذا احْتَجْنا إلى مثلها.

ولن يتم ما ننشده أيضاً من استلهامٍ للدروس إلا إذا عرفنا إخفاقاتنا وعثراتنا وأخطاءنا لكي نحرص على تجاوزها مستقبلاً.

ولا يخفى على أحد أن عَدَّ المرء لمحاسنه ليس كعدّه لمساوئه، وأنه أقدر

على رؤية الفضائل أكثر من رؤيته للرذائل، إلى درجة أنه لا يحتاج إلى غيره لرؤية الفضائل، في حين أنه ما أحوجه إلى غيره لرؤية العيوب، فالمِرآةُ لا يحتاجها غالباً إلا لاكتشاف العيب والنقص ليحسنه ويكمّله.

ولئن كان عوامّ الناس بحاجة إلى رفع المعنويّات بذكر المحاسن والبداء بها؛ فإنّنا معشر القائمين على الإصلاح نحتاج من حين لآخر إلى لحظات مصارحة ومكاشفة، نعتني فيها بإدراك العيوب لسَدّ الخلل.

ولذلك عُنِيْتُ في هذه الأوراق أن أُبرز بعض أهمّ نقاط الخلل التي انتابت عَمَلَنا الإسلامي في هذا الحدث، وأن أحاول أن أبين جوانب قصور أدائنا فيه مع تضمين ذلك ذكر بعض أهمّ المقترحات لسدّ الخلل وتكميل النقص.

واسمحوا لي أن أكون صوتَ المعارضة، ونبرة النقد، لكن لا لمجرّد المعارضة ولا حبّاً للنقد.. للنقد فقط، بل من أجل الإصلاح. وليس عدم ذكري للنجاحات استخفافاً بها أو لقلتها، ولا لعدم روئيتي لها؛ ولكن لأن الوقت قصير (هذا أولاً)، (ثانياً): لأن ورقة بحثي خصّصتها للإخفاقات، ليس إلا. وإلا فإن النجاحات كثيرةٌ ومباركة، والإنجازات عظيمةٌ نفخر بها، ومن هذه الإنجازات والنجاحات هذه الندوة المباركة.

أسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وجوه القصور في موقف الأمّة
في دفاعها عن مقدّساتها

كما قدّمت به في هذه الأوراق، أن الْتِفَاتي سيكونُ لوجوه القصور التي بدت لي من معايشتي لموقف أمَّتنا الإسلامية من تحدّيات الإساءة إلى المقدّسات، وأن اهتمامي سينصرف إلى ذكر بعض الإخفاقات التي ينبغي علينا السعي إلى دراسة أسبابها، لمحاولة تجاوزها في مستقبل أمتنا، ولكي نُوجِد الوسائل الصحيحة لتكون نجاحاتٍ بلا إخفاقاتٍ قدر المستطاع.

الوجه الأول: شيوع التصوّرات الخاطئة عن أسباب هذه الإساءات، وظهور التفسيرات القاصرة أو البعيدة عن الصواب في تحديد دواعيها:

وخطورة هذا الوجه من وجوه القصور يظهر من جهة أن مواجهة المشكلة بالطريقة المؤدّية إلى حلّها إنما تبدأ من معرفة أسبابها، فإذا ما فُسِّرت دواعيها بالتفسير المجانب للصواب، أدى ذلك إلى عدم القدرة على مواجهتها المواجهة الصحيحة الكفيلة بحلّها. فمعرفة الداء سبيلُ تحديد الدواء، كما أن معرفة أسباب الداء سبيل معرفة طُرُق الوقاية منه.

ولهذا الوجه صورٌ متعددّة:

الأولى: استمرار سيطرة فكرة المؤامرة على تصوّراتنا، ومحاولة ربط الحوادث بخيوط ضعيفة، وإغفال أن العالم بعد الحادي عشر من سبتمبر وما تلاه من أحداث، قد زاد احتكاكه بالإسلام والمسلمين، ومن الطبيعي في هذا الوقت المتأزِّم أن تتعدد فيه أنواع المواجهة، وأن يكون

منها المنظّم وغير المنظّم. ولا أريد بذلك إلغاء فكرة المؤامرة، لكني ضد عقدة المؤامرة، التي تبالغ في هذا الوجه من وجوه التفسير، وتجعل وسائل المواجهة كلّها مبنّيةً عليها. أما أن نضع هذا في الحسبان، وأن تكون المؤامرة إحدى المسبّبات لبعض تلك الاعتداءات، بحسب الأدلة الدالة على ذلك فهذا مطلوب؛ لأنه الحق الذي لا يخالف فيه من استبانت له أدلّته.

الثانية: حصر سبب تلك الاعتداءات في سبب واحد، مع أن أسبابه متعدّدة، أو التركيز على أسباب بصورة تؤدي إلى إغفال أسباب أخرى.

فمثلاً سمعنا وقرأنا من عَدَّ السبب في ذلك هو أن العالم النصراني والغربي بالتحديد، يعادي أهل الإسلام مع علمهم بصحّته، عناداً وإصراراً على الباطل. وهذا وإن كان حقاً في قلّة من الباحثين الغربيين، فإننا نعلم يقيناً أنه لا ينطبق على الكثرة الكاثرة والأعمّ الأغلب من الغربيين، الذين يجهلون دينهم (قبل غيره) جهلاً شديداً. فضلاً عن أن يكونوا قد عرفوا نبوة النبي ﷺ وجحدوها عن علم وعناد على البطل.

وخطورة هذا التصورّ أو المبالغة في تعميمه فوق واقعه الضيق الوجود جداً أنه سيحول بيننا وبين أهمّ وسيلة للدفاع عن النبي ﷺ، وهي التعريف به على الوجه الصحيح؛ لأن من كان يعرف النبي ﷺولم يمنعه من الإيمان به إلا الاستكبار، ما فائدة محاولة تعريفه بالنبي ﷺ؟

إن محاولة حصر أسباب تلك الاعتداءات في سبب واحد، أو تضخيم

سبب فوق حجمه الذي هو عليه، سيؤدّي إلى نتائج غير صحيحة. ولن يساعد على المواجهة الصحيحة.

ولا بأس بذكر بعض الأسباب الكبرى لهذه الاعتداءات:

الأول: العداء الأزلي بين الحق والباطل والإسلام والكفر، والذي لا يلزم لوقوعه أن يكون صادراً ممن عرفوا أنهم على الباطل والكفر فأصرّوا عليه، بل يصدر عداء أصحاب الباطل للحق مع ظن أصحاب الباطل أنهم على الحق، وهذا هو الغالب، ويصدر من أصحاب العناد العالمين بالحق التاركين له بُغضاً وكبراً وعناداً.

إن الصراع لمتوقَّعٌ بسبب اختلاف المبادئ والأديان، فهو صراع أساسه عقيدة الولاء والبراء الراسخة في قلب أصحاب كل دين ثابتين عليه.

الثاني: الجهل بالإسلام رسولا وتعاليم، والذي كُنّا نحن سبباً من أسبابه بتقصيرنا في الدعوة إلى الله تعالى.

الثالث: انتشار صورة قاتمة ظالمة للإسلام والمسلمين في العقليّة الغربيّة، كان للغربيين دورٌ كبير فيها، من خلال حركات الاستشراق (القديمة والحديثة) التي أصدرت دراسات جائرة وبثّت تصوّرات كاذبة عن الإسلام والمسلمين، ومن خلال وسائل الإعلام المسيئة في الغرب، والتي يقع كثيرٌ منها تحت سيطرة جهات صهيونية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومن خلال أوضاع بعض المسلمين الذين أعانوا على الإساءة إلى الإسلام أيضا، وأكدوا التصورات الظالمة عن الإسلام، بأفعالهم

المخالفة له المنسوبة إليه بغير حق، ومن خلال التخلف الحضاري الـذي تعيشه كثير من الدول والمجتمعات الإسلاميّة، كـل هـذا وغـيره أدى إلى سوء التّصور لدى غير المسلمين عن الإسلام وأمة الإسلام.

الرابع: اختلاف القِيَم بيننا وبينهم، فالغرب ليس لدى عموم شـعوبه مقدّس ديني؛ في حين أنهـم يقدسـون قيمـة الحريّـة الفوضـوية، ولـذلك قدموها على المقدس الديني. ويجب علينا فهم هذا الأمر جيداً إذا أردنـا التفاهم مع الغرب، لكي لا يكون نقاشنا معهم مثل نقاش الصُّمّ، فنحن نتكلّم بكـلام لا يفهمونـه، وهـم يتكلمـون بمـا لا نفهمـه؛ لأنّ منطلـق النقاش (وهو القيم) مختلفٌ بيننا تماماً.

وهذا نقصٌ في الخطاب الإسلامي ظهر في أزمة الرسـوم الدانمركيّـة، ولا بد من معالجته، وإلا فلن نستطيع مخاطبـة عقلائهـم، ولـن نـستطيع إقناعهم باستصدار قـوانين تجـزم الإسـاءة إلى مقدسـات المـسلمين. إذن مادمنا مضطرين إلى خطابهم وجعلهم هـم مـن يمنـع تلـك الإسـاءات، فلابد من أن نفهمهم تماماً، ولا نصادم قيمهم من أجل قيمنا.

وفي هذا الـسياق أودّ مـن عمـوم المـسلمين مـن أهـل الفكـر ورجـال القانون، أن يطّلعوا على ردّ المدّعي العام الدانمركي على محـامي اللجنـة العالميـة لنصـرة خـاتم الأنبـياء ﷺ في رفـضه لقبـول الـدعوى المقدّمـة ضد الصحيفة الدانمركية، وهو منشور في موقع اللجنة بـاللغتين العربيـة والإنجليزية؛ لكي يكون خطوةً أولى لفهم القوم وطريقة تناولهم لقـيمهم وقيم غيرهم.

الصورة الثالثة لنقص التصور: اعتقاد أنّ ما حدث في الدانمرك شيءٌ جديد، وأن الدانمرك هي أوّل من أساء بالتعدي على مقام النبي ﷺ. وهذا التصوّر في غاية البُعْد عن الصواب، ولذلك فهو في غاية الغرابة. فإن الإساءة إلى النبي ﷺ بدأت من يوم أن بُعِث ﷺ، كما هو معلوم، ولم تنقطع من حينها إلى اليوم. وبعد انفتاح العالم على بعضه من خلال وسائل الاتصال الإعلاميّة وغيرها، أصبحت تلك الإساءات عالميّة بسبب هذا الحدث الحضاري الهائل، الذي جعل العالم بحق أصغر من القرية الواحدة.

وقد سبق الدانمرك إلى الإساءة بعد الحادي عشر من سبتمبر تصريحاتٌ مشينة ومسيئة لبعض المسؤلين في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها، كانت تلك التصريحات هي الدافع لإنشاء اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ. والخلل الذي أدّى إليه هذا التصور الخاطئ: تخصيص الدانمرك وحدها ببعض جهودنا في استنكار الاعتداءات، وعدم وضعها ضمن صفّ المعتدين جميعهم. وهذا لن يحّقق الانتصار الذي نرجوه للنبي ﷺ؛ لأننا أغفلنا جميع المعتدين بحجة أن الدانمرك هي أول معتدٍ؛ فلا ذلك الإغفال صحيحٌ لو كانت الدانمرك فعلاً هي أول معتدٍ؛ ولا كانت هي أوّل معتدٍ أصلاً؛ ولذلك فهذا تَصَرُّفٌ مُجانِبٌ للصواب بمقدّمتيه كلتيهما!

الوجه الثاني: عدم وضوح الهدف أو عدم وجوده أصلاً من تلك الاحتجاجات، سواءً أكانت مظاهرات أو مقاطعة أو غير ذلك. فقد كانت تلك الاحتجاجات في غالب الأحيان بلا هدف واضح؛ بل ربما كانت مجرّد تفريغ لشُحنة غضب وانطلاقاً من عاطفة غير موجّهة.

ولا شك أن الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ دليلٌ من أدلة الإيمان، كما أنّ العاطفة الدينية مطلوبة أيضاً؛ لكن الغضب إذا لم ينضبط ضرّ وما نفع، ولا يضبطه مجرّد كونه لله، بل لا بد من التزامه بأمر الله، وأن يكون له هدف يحقق أمر الله تعالى، وكذلك العاطفة الدينيّة، إذا لم يكن لها أهداف، كانت مجرّد مشاعر لا تنصر الدين الذي جاشت وتحركت لأجله!

وآثار هذا الخلل واضحة، فإن أي عمل لا تكون له أهدافٌ واضحة تماماً، لن يحقق شيئاً؛ وكيف يحقق هدفاً وهو لم يَسعَ إليه أصلاً؟! بل أنّى ينتظر تحقق الهدف من لم يضع له هدفاً؟!

أمّا إن قيل: قد تحققت كثيرٌ من الأهداف جرّاء تلك الاحتجاجات، فكيف يُدّعى أنها لم تكن ذات هدف؟! فأقول: قد تحقق بعض الأهداف دون قصد، كما أن من تلك الاحتجاجات ما كان مُهَدَّفاً بمحاولة بعض أهل العقل والعلم أن يجعلوا له هدفاً.

ولكن المهم: هل كانت تلك الأهداف التي تحققت مقصودة؟

والمهم الآخر: هل فوّتنا أهدافاً أخرى بسبب عدم تهديف تحرُّكاتنا؟

وهنا أود أن أضع قاعدةً لمحاسبة منجزاتنا الإسلامية:

الإنجازات غير المدروسة (مهما عَظُمَت) لا تستحق كل الإشادة؛ لأنها نتجت عن عمل بغير نيّةٍ وقصد، ولأنه وصول إلى الصواب لا بجهدنا بل بفضل الله تعالى، فالمحمود عليه هو الله وحده.أمّا الإنجاز المدروس (مهما صَغُر) فيستحق الإشادة؛ لأنه نتج عن عمل بنيّة وقصد، ووصولٌ للصواب بعد استفراغ الجهد في الوصول إليه، فالمحمود فيها الله وحده أيضاً ولكن لا يُشْكَرُ الله تعالى حينها إلا بشكر الناس. فالأول (وهو صاحب الإنجاز غير المدروس) وصل إلى الإنجاز بلا تكليف، بل بمحض الفضل الإلهي، والثاني (وهو صاحب الانجاز المدروس)وصل إليه وهو تحت طائلة التكليف والمحاسبة. فأيّهما أولى بالإشادة، وأيهما المستحق للثواب الأخروي والشكر له في الدنيا؟!

ولهذا الوجه من وجوه الإخفاقات صورٌ عديدة:

الصورة الأولى: أن تكون تلك الاحتجاجاتُ نتيجةَ فورةَ وغضبٍ فقط، ولا هدف لها البتّة. وحينها قد تخرج هذه الفورة عن حدودها، وقد تسيء إلى صورة المسلمين، كما وقع فعلاً. كما أن هذه الفورة سرعان ما تهدأ، ولا يمكن أن تُسْتَثمَر، ولا أن يكون لذلك الغضب طاقةً فاعلةً لما فيه تحقيق مصالح للأمة.

وكان ينبغي أن يُسارع الدعاة والعلماء والقادة إلى بيان أهداف تلك الاحتجاجات، وإلى استثمار تلك الغضبة في عمل جماعي وبذلٍ بالجُهد والمال، لما يحقق الهدف الذي ينشدونه.

الصورة الثانية: المطالبة بأهداف مستحيلة، أو مُستبعدة الوقوع، وربما كان من المضرّ مجرّد ذكرها وإعلانها.

فمن مُطالبٍ بقتل الرسّامين أو رئيس تحرير الصحيفة المسيئة، ولا يخفى ما في هذا الطلب من بُعد وإساءة جديدة لصورة المسلمين.

وآخر: جعل هَدَفَه ضمان عدم تكرار الإساءة، غافلاً عن أن الإساءة تحصل وستحصل مادام على وجه الأرض عدو للإسلام. ولذلك أصيب بعضهم بالفشل بسبب تكرار الإساءة؛ لأنه كان هدفه الذي بذل له أن لا تتكرر، فلما تكررت شعر بأنه أخفق في تحقيق الهدف. كما أن بعضهم جعل تكرار الإساءة بسبب تقصير في وجهة نظره في موقفٍ لبعض علماء المسلمين، وأن تكرار الإساءة ما كان سيحصل لولا اجتهاد أولئك العلماء الذي يراه خاطئاً، وأصبح أكبر دليل على خطأ أولئك العلماء عنده تكرار الإساءة؛ فكأنّ رأيه الذي كان يراه هو.. من الممكن أن يمنع تكرار الإساءة.

وثالث: جعل هدفه أن تركع الحكومة الدانمركية للمسلمين، وتلبّي مطالبهم، تلك المطالب التي لم تتحدّد بعد، فَمِنْ مطالب بقتل الرسّام، أو بالتعهّد بعدم تكرار الإساءة، أو بالاعتذار الذي يختلفون في صيغته المقبولة.

ولا تدري هل فهم هؤلاء قَدْر ما قدّموه في النصرة، وهل هو على قدر هذا الهدف؟ أم لا يهُمّ أن يفهموا؟! فالمهم فقط أن يحلموا بأهداف ولا يكونوا قادرين على تحقيقها!!! إن تركيع حكومة (لفظاً ومضموناً)

وإذلالها بالطريقة التي يحلم بها هؤلاء يحتاج هزيمةً عسكريةً ساحقة، وهم يريدون تحقيق هذه الهزيمة بالمظاهرات ومقاطعة بعض الشركات!!!

الصورة الثالثة: استعجال الوصول إلى الهدف، بغير علم بالطريق الموصل إليه، وهل هو مما يحتمل هذا الاستعجال أو لا يحتمله. وسبب هذا الاستعجال هو بسبب عدم وضوح معالم الهدف وبالطرق الموصلة إليه، وإلا لو كان واضحاً لعرفنا ما الذي يحتاجه من الجهد والبذل والوقت أيضاً.

مثاله: لّما سعى البعض إلى استصدار أحكام قضائيّة ضد الحكومة أو ضدّ الصحيفة، رأينا من لم يقف به الأمر عند حدّ الاستعجال بسبب تأخر حصول هذا الهدف، بل وصل به الأمر إلى درجة أنه يائس من الوصول إلى هذا الهدف، ولو بعد حين، حتى أصبح يستهجن الحرص في الوصول إليه، وربما شمت! بمن حاول ثم أخفق، كما وقع هذا فعلاً.

كما أننا وجدنا من لا يرى السعي إلى استصدار قانون يجرِّم المساس بالمقدسات الإسلامية ة والإساءة إليها ، بسبب أن المطالبات القريبة بها لم تحقق نجاحاً. فاستعجاله قطف الثمرة جعله يترك السعي إلى قطفها في أوانها، ولو بعد حين.

وينسى هؤلاء أن اليهود أصحاب النفوذ والسيطرة العالميّة لم يحصلوا على قانون معاداة السامية إلا بعد عشرات السنين، كما أنهم نسوا أيضاً أن السعي إليه (ولو لم يؤت ثمرته المقصودة) إلا أنه سيؤدي إلى ثمار

أخرى هي ثمار المظاهرات والمقاطعة من الدلالة على الاستنكار والإدانة.

الصورة الرابعة: ضآلة الهدف مع احتمال أن يكون أعظم وأجلّ.

وأعظم هدف هو التعريف بالإسلام وبنبي الإسلام ﷺ، ونشر دعوة الإسلام التي طالما تراخى دونها بل أهملها المسلمون؛ فلماذا لا يكون ما وقع دافعاً لتحقيق هذا الهدف العظيم، وهو أعظم وجه من وجوه النصرة، وهو الغاية الكبرى من بعثته ﷺ.

فالاكتفاء بمجرّد الاعتذار، أو حتى معاقبة المسيء، ليس هو هدفنا الأسمى.

إن هدفنا الأسمى هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فلا يصح أن نُفوِّت فرصة هذه اليقظة الإسلامية دون تذكير المسلمين بواجبهم الذي غفلوا عنه حتى نسوه، بل كان الواجب بيان أن هذا هو ما يجب أن ينصروا به النبي ﷺ. وهو أوجب ما يجب عليهم تجاه أتباع غير ملة الإسلام، وما شُرع الجهاد بالنفس والمال إلا لأجلها!

أين الأمة (أمة الثراء المادّي والعقول المبتكرة وأمة التحضّر) من إنتاج إعلامي عالمي، على أرقى المستويات العالمية جاذبيةً وإثارةً، ودقةَ معلومة، للتعريف بالنبي ﷺ؟!

الوجه الثالث: ضعف الجهود في تحقيق الأهداف المطروحة، سواءً رضيناها أهدافاً أو لم نرضاها، ومع ذلك لم تكن الجهود بالمستوى الذي كان ينبغي أن تكون عليه.

ولهذا الوجه صُوَرٌ وأسباب:

وأوّلها: تشتُّتُ الجهود وتبعثرها، وقلّة التنسيق. فكم من لجنةٍ أنشئت بعد حادث الدانمرك؟ ولا إشكال في الإنشاء، لكن الإشكال في إنشاء بغير استفادةٍ من الجهود السابقة غالباً، وكأن القضية في أحيان ليست بالنادرة منافسةٌ على شرف دنيوي ومنصبٍ يُتَزاحَمُ عليه.

ولا شك أن تقسيم الأدوار مطلوب، وأن التعاون على الهدف الكبير من جهات عدّة محمود. لكن غير المطلوب والمحمود أن يكون الغرضُ الحلولَ محلّ جهة أخرى أو إسقاط لجنة قائمة لمجرّد أن القيادة أو العضويّة فيها لا تُحسَب على تلك الجهة التي أنتمي إليها!

وهنا يبدو الألم عميقاً: عندما تتوحد الشعوب، ويعجزُ بعض إصلاحييِّها من أن يتحدوا، وما زالوا لا يستطيعون الانفكاك من ضيق أفق الجماعة أو الحزب أو القيادة أو الآراء الفكرية التي يتبنونها!!

وثانيها: بقاء كثير من جهودنا في حدود ردود الأفعال، لا بناءً على الدراسة المتعمّقة التي تستشرف المستقبل: للتوقّع، ووضع الحلول المناسبة، ولسبل الوقاية من الوقوع في المشكلة.

فمثلاً: هل أقمنا دراسات عن المقاطعة من جهة أنواعها (الحكومية

والشعبية) وجدواها الاقتصادية، هل أقمنا مكاتب لتقويم مقاطعات أي دولة في العالم: هل يمكن أن تُقَاطَعَ عند الحاجة إلى إجراء موقف ضدها؟ وهل تُقاطع كُلّيّاً أم جزئياً؟ وما الغرض من المقاطعة؟ هل هو الإنهاك والإخلال الاقتصادي؟ أم الإثارة الإعلامية للفت النظر عالميّاً إلى قضيتنا؟

ومثلٌ آخر: هل أقمنا دراسات لمعرفة الخلفيّات العلميّة والثقافيّة والتاريخيّة والحضاريّة والدينيّة لتلك الإساءات، باختلاف جهات صدورها، بكل دقّة، لنعرف كيفية مواجهة كل إساءة بما يناسبها، بناءً على العلم بدوافعها المختلفة ولاشك.

إلى غير ذلك من الدراسات، والخطط الوقائية، بدلاً من أن لا تكون جهودنا إلا ردود أفعال. ولا يخفى أن ردود الأفعال ليست في قوة المواقف المدروسة المبنيّة على نظرة مستقبلية.

ثالثها: تأخُّر ردود الأفعال من دون سبب مقنع.

فمثلاً الهجوم على النبي ﷺ بدأ بقوة بعد الحادي عشر من سبتمبر عام (٢٠٠١م)، وعلى أعلى المستويات من بعض رجال الحكومة الأمريكية وغيرهم، وما أقل التحرّكات وردود الأفعال حينها؛ حتى إذا ما وقعت إساءة الصحيفة الدانمركية هب الناس هبتهم المحمودة تلك. لكن لماذا تأخّرت تلك الهبّة؟!

لا ينبغي أن تكون ردود أفعالنا (وهي مجرّد ردود أفعال) بهذا البُطء، بل لا بد من المبادرة المدروسة ذات الهدف الواضح.

رابعها: السماح لأصحاب الأغراض الشخصيّة والأرباح الدنيوية باستغلال الحدث لصالحهم الدنيء، أو لأصحاب النوايا الحسنة دون عقل أو عدل من ممارسة الدور الذي لا يكادون يحسنون غيره، وهو المزايدة على الغيرة الدينيّة والمسابقة غير المنضبطة إلى دعاوى الحميّة الشرعيّة.

فكم من شركة ادُّعِيَ أنها دانمركية وهي ليست كذلك، وخرجت تلك الادعاءات من شركات منافسة أو من أشخاص بغير تبيُّن!

وكم من شركات نُسبت إليها اعتداءات ولم يصح ذلك عنها!

وكم من أقوال نُسبت لأشخاص وكانت نسبتها خطأ، أو فهمت خطأ!

وكم ادعى أناس من التجار وغيرهم دعماً أو تبرعاً أو وقوفاً مع المقاطعة، وقد لا يكون ذلك كله واقعاً، بل هي مجرّد وسيلة كاذبة رخيصة للدعاية والإعلان.

وكم من شائعة عن رسام أصابته قارعة، أو إهانات أو إساءات تُنشر عبر رسائل الجوال وغيرها، وهي كذب محضٌ، بحجج ومقاصدَ عديدةٍ، الله أعلم بقصد أصحابها وبأغراضهم.يكفي أنها كذبٌ بَحْتٌ، لا يمتّ إلى الواقع بأي صِلة؟

خامسها: قصورٌ في الوسائل المتّبعة في تحقيق الأهداف التي وضعناها خلال الأزمة السابقة.

ونبدأ بالحكومات: فمع ما يُذكر ويشكر لكثير من الحكومات الإسلامية، حيث سبقت الشعوب إلى معالجة الأزمة، وكان لبعض

الحكومات مواقف أكثر صرامة من بعض. لكن تفاوت المواقف قوةً وضعفاً، وضعف التنسيق بين هذه الدول الإسلامية، جعلت النتائج ليست بالمستوى المطلوب!

وكذلك أداء وسائل الإعلام والفضائيات الإسلامية: لم تكن بالمستوى المأمول في تغطية الحدث، ولا في تغطية مواقف الشعوب الإسلامية منه، ولا في إنتاج البرامج المصاحبة له.

ألا يكفي أن مؤتمراً مثل مؤتمر البحرين الذي ضمّ ما يزيد على ثلاثمائة عالم وداعية ومفكر من جميع العالم الإسلامي، لولا تغطية قناة الجزيرة له من خلال البَثِّ المباشر، لما وجد قناةً إسلاميةً تنقله بنحو تلك التغطية! حتى تلك القنوات الإسلامية الصِّرفةُ التي كنّا ننتظر منها الكثير!

وأما التجار ورجال الأعمال ومدراء الشركات: فمنهم من كانت له مواقف مشرفة ولا شك، ومنهم من لا هم له إلا الاصطياد في الماء العكر (كما قدمناه) من خلال الشائعات الكاذبة. ولم يقف قصور أداء أرباب الثروات عند هذا الحدّ، بل تعداه إلى أن بعضهم اقتصر دوره على مقاطعة ما قاطعته الشعوب أصلاً، أما ما لا علم للشعوب به ولا قُدْرَةَ لها على مقاطعته، كشركات الشحن مثلاً، فلم تدخل عنده ضمن ما يستحق المقاطعة بالبحث عن بديل، لتفعيل أثر المقاطعة. كما أن وقوف هذه الفئة في الغالب كان في جانب نصرة الامتناع عن الشراء (المقاطعة) دون نصرة البذل والعطاء لمشاريع النصرة العديدة، فقد يقاطع أحدهم؛

لوجود البديل أو لكسب سمعةٍ حسنةٍ أو لمقصدٍ طيّب، لكنه يشُح عن العطاء في الذب عن رسول الله ﷺ!

هذه أهم إخفاقات تجربتنا السابقة، والتي تقابلها نجاحات عظيمة، وانتصارات حقيقيّة لا تُنكر، لكن تخصُّص المقال في الإخفاقات هو الذي جعلني أقتصر عليها، بغرض دراستها من إخواني الحضور من أصحاب العمل في الساحة، فما وجوده إخفاقاً حقاً حاولوا تجاوزه في المستقبل، وما وجوده بخلاف ذلك عملوا على تحقيقه.

والله من وراء القصد.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين، والله أعلم.